

التفسير المطول - سورة النساء 004 - الدرس(58-69): تفسير الآيات 131-134، التوحيد وأصل الفساد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-04-2003

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا بما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

**كل ما في الكون ملك لله عز وجل والعبرة أن ترضى بقضاء الله :**

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والخمسين من دروس سورة النساء، ومع الآية الواحدة والثلاثين بعد المنة، وهي قوله تعالى:

( **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ( وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا)**

أيها الأخوة الكرام: آيات القرآن الكريم كما يقول بعض علماء الأمة أخذ بعضها برقاب بعض، أي أن هناك ارتباط دقيق جداً يدركه من وفقه الله لفهم هذا الكتاب، فالحمد لله سبحانه وتعالى حينما يقول:

( **وَإِنْ يَنْفَرَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ)**

[ سورة النساء: 130 ]

أي كل ما في الكون ملك لله عز وجل، والله عز وجل قادر أن يهب التي طلقها زوجها زوجاً خيراً منه، وقادر أن يهب الذي أبت عليه زوجته أن تكون زوجة صالحة أن يهبه زوجة صالحة، وقادر على الذي رضي بقضاء الله وقدره فمنحه الله البنات من دون الذكور ورضي بهذا القضاء أن يهبه الله أصهاراً هم أقرب إليه من أولاده، وقادر على الذي وهبه الذكور من دون الإناث أن يعينه في شؤون حياته، العبرة أن ترضى بقضاء الله، العبرة أن تؤمن أن الأمور كلها بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه حسنى، وصفاته فضلى.

## الخيارات عند الله سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى :

حينما تستقبل قضاء الله عز وجل بالرضا، فالله عز وجل له ملك السماوات والأرض، والأمر كله بيده، وبالتعبير القريب إلى أذهان الأخوة الكرام: الخيارات عند الله سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى، كما جعله رجلاً عقيماً، الله عز وجل قال:

( يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ\*أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا )

[ سورة الشورى: 49 - 50 ]

هذا الذي جعله الله عقيماً لحكمة أرادها، لو أن هذا الإنسان استقبل هذا القضاء والقدر بالرضا، ورضي عن الله عز وجل فقد يسخر له ربنا من يخدمه خدمة تفوق خدمة الابن، أحياناً الإنسان ينجب أولاداً ذكوراً كلهم مسافرون ولا ينتفع بهم إطلاقاً، لذلك فهم بعض العلماء من قوله تعالى:

( وَبَيْنَ شُهُودًا )

[ سورة المدثر: 13 ]

أي بنين معه، في معونته، وليسوا بعيدين عنه، فقد يهب الله الذكور، ولا تنتفع بهم، وقد يهب الله الإناث ولا ترضى بهنّ، وقد يجعل الله من يشاء عقيماً، فإذا قيل حكم الله عز وجل سخر له من يخدمه أفضل من خدمة أولاده، العبرة أن ترضى عن الله، العبرة أن ترى أن الله بيده الخير، يؤتي الملك لمن يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، العبرة أن ترى الأمر كله بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه حسنى، وصفاته فضلى.

## الموحد الحقيقي :

الآية الكريمة:

( وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ )

وقد ذكرت لكم من قبل أن (اللام) هنا في كلمة الله لأم الملك، أي كل الكون ملك لله عز وجل، لكن ملكية الله لهذا الكون هي أعلى درجات الملكية، فهو يملكه خلقاً، ويملكه تصرفاً، ويملكه مصيراً، بينما البشر قد يملكون ولا ينتفعون، وقد ينتفعون ولا يملكون، وقد ينتفعون ويملكون، والمصير ليس لهم. وجاءت هذه الآية ثلاث مرات؛ المرة الأولى:

( وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا )

[ سورة النساء: 126 ]

المرة الثانية:

( وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ )

الآية الثالثة:

( وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا )

أي كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يطمئننا، وهؤلاء الذين يضعف إيمانهم في هذه الأيام العصيبة يرون أن الأرض ليست بملك الله عز وجل، بملك أناس بلغوا ذروة القوة، وفرضوا إرادتهم على كل الشعوب، وأنهم آلهة الأرض، وهذا يبعث في النفس القلق والخوف والضعف، بينما الموحد متوازن، والبطولة أن توحد في مثل هذه المحن لا في الرخاء، في الرخاء جميع الناس موحدون، ولكن الموحد الحقيقي هو الذي حينما تشتد المحن يبقى متيقناً أن الأمر بيد الله.

**عظمة الإيمان أن تشعر بكل خلية في جسمك أن الأمر بيد الله :**

يروى أن أحد الطغاة استدعى صحابياً جليلاً في بدايات العهد الأموي ليقتله، فقال له هذا الصحابي، أو لعله تابعي، لا أذكر، قال له: لو علمت أن أجلي بيدك ما عبدت غيرك، لكن أجلي بيد الله عز وجل. عظمة الإيمان أيها الأخوة أن تشعر بكل خلية في جسمك، وبكل قطرة في دمك أن الأمر بيد الله، أنت حينما تقرأ القرآن، وتقرأ قوله تعالى:

( يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ )

[سورة الفتح: 10]

تطمئن، وحينما تقرأ قوله تعالى:

( لَّا يُغْنِيكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ\*مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ )

[سورة آل عمران: 196-197]

وحينما تقرأ قوله تعالى:

( فَلَمَّا تَحَسَّنَ اللَّهُ مُخْلِفاً وَعَدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ )

[سورة إبراهيم: 47]

وحينما تقرأ قوله تعالى:

( وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ )

[سورة إبراهيم: 42]

**معنى التوحيد :**

في صفحة واحدة الله جل جلاله أعاد هذه الآية بصيغ مختلفة ثلاث مرات:

( وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ )

نحن المؤمنون إن شاء الله نؤمن أن الله فعال، والآية الكريمة:

( وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ \* ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ \* فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ )

[سورة البروج: 14-16]

الذي يريده يفعله، ولا تستطيع قوة في الأرض أن تفعل شيئاً ما أَرَادَهُ اللهُ، كما أنه لا تستطيع قوة في الأرض أن تمنع عنك خيراً أَرَادَهُ اللهُ، كما أنه لا تستطيع قوة في الأرض أن تجلب لك منفعة حجبها الله عنك.

( مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ )

[سورة فاطر: 2]

هذا هو التوحيد، وما من وقت نحن في أمس الحاجة إلى علم التوحيد، أو إلى التوحيد كهذا الوقت، لأن الله جلت حكمته من امتحاناته الصعبة للمؤمنين أنه يقوي الكافر، والكافر يفعل فيما يبدو ما يريد، فيما يبدو لضعيف البصر، لكن الحقيقة أن يفعل الله ما يريد.

**العبرة أن ترى أن يد الله تعمل وحدها وليس مع الله أحد هذه حقيقة التوحيد :**

نحن مدعون أيها الأخوة إلى التعمق في آيات التوحيد، الموضوع متعلق بالزواج، أنت تزوجت امرأة سالحة، أو تزوجت امرأة ليست سالحة، لو حصل فراق بينكما فانه عز وجل قادر أن يعطي المرأة التي طلقت زوجاً خيراً من زوجها، وقادر أن يعطي الرجل الذي لم تكن زوجته مقدره له زوجة أخرى تقدره، وقادر لمن أنجب ذكوراً أن يملأ قلبه رضاء، ولمن أنجب إنثاءً أن يملأ قلبه رضاء، ولمن جعله الله عقيماً أن يملأ قلبه رضاء، والعبرة أن ترى أن يد الله تعمل وحدها، وليس مع الله أحد، ليس في الكون إلا الله، هذه حقيقة التوحيد، على شبكية العين هناك قوى لا تعد ولا تحصى، قوى طاغية غاشمة ظالمة تقتل، تدمر، تهدم، هذا على الشبكية، أما عند إدراك المؤمن العميق فإن الأمر كله بيد الله، والآية واضحة:

( قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ )

ترون وتسمعون كيف ينزع الملك ممن يشاء، الذي كان قبل أيام في أعلى درجة هو يتخفى من مكان إلى مكان:

( لَا يَغْرَنَّاكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ \* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ )

[سورة آل عمران: 196-197]

حينما ترى أن الله يعمل وحده، وأنه يعطي كل إنسان ما يستحقه، وأن حساب الله عسير.

( إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ )

[سورة البروج: 12]

عندئذٍ ينبغي أن تخاف من الله، ولو وجدت الحبل مرخياً لك، هذا الحبل المرخى يشد في أية لحظة.  
( إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ )

[ سورة الأعراف: 183 ]

#### أصل الفساد ومصدره :

إن الإنسان مربوط بحبل لا ينقطع، في أية لحظة أراها الله عز وجل يشد الحبل فإذا هو في قبضة الله، يسحب من تحته البساط فإذا هو بيد الله عز وجل، كأن هذه الآية:

( وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ )

تطمئن لكل زوجين افتراقاً، كنت أقول دائماً: حينما يفترق زوجان أدعو لكل منهما أن يهبه شريكاً أفضل من الذي كان، وقد يحدث هذا:

( وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ )

الآية الكريمة:

( وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ )

هناك ملمح أيها الأخوة، وهو أن الذي سخره الله ليس فيه فساد إطلاقاً، هذه الأرض مسخرة، دورتها حول الشمس من ملايين السنين، لا تتقدم ولا تتأخر، أدق الساعات في العالم قد تقصر في العام كله ثانية واحدة، كيف تكشف أنها قصرت ثانية؟ على حركة نجم، فالكون يعمل بنظام عجيب، لأنه مسخر، إذاً لا يتطرق الفساد إلى الكون أبداً، كل شيء ما سوى الإنس والجن ليس فيه فساد، لأنه مسخر بيد الله عز وجل، وتجد في حياة الحيوان وفي حياة النبات، وحتى في حياة الكواكب والأفلاك نظاماً دقيقاً دقة متناهية، وانسجاماً عجباً، فالفساد من أين يأتي؟ من مخلوق سمح الله له أن يختار، وأودع فيه الشهوات، وأعطاه منهجاً، فهذا المخلوق وهو الإنسان والجن معه يتحركان انطلاقاً من شهواتهما من دون منهج يسيران عليه فكان الفساد.

ليس هناك فساد في خلق الله أبداً لأن الله كماله مطلق وشمولي :

لذلك حينما قال الله عز وجل:

( ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ )

[ سورة الروم: 41 ]

ليس هناك فساد في خلق الله أبداً، لأن الله كماله مطلق، وكماله شمولي، وكل شيء خلقه في أكمل مستوى.

### ( مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ )

[سورة الملك: 3]

مرة حدثتكم أن هذه البعوضة التي لا تنتظر إليها لتفاهتها عندك في رأسها مئة عين، وفي فمها ثمانية وأربعين سناً، وفي صدرها ثلاثة قلوب، قلب مركزي، وقلب لكل جناح، تملك جهازاً لا تملكه الطائرات، مستقبلات حرارية، ترى بالأشعة تحت الحمراء، ترى الشيء في الليل بحرارته لا بلونه وشكله، عندها جهاز رادار، جهاز تخدير، عندها جهاز تمبيع للدم، عندها محاجم، عندها مخالب، الله عز وجل قال:

### ( مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ )

[سورة الملك: 3]

هذه البعوضة التي تزن واحداً على ألف من الغرام دقة صنعها ليست أقل من دقة صنع الحوت الأزرق، الذي يبلغ مئة وخمسين طناً، وجبته المتواضعة أربعة أطنان، وليده رضعته تساوي ثلاثمئة كيلو، ثلاث رضعات بطن حديد كل يوم:

### ( مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ )

[سورة الملك: 3]

## الفساد محصور فقط في الإنس والجن

لأنهما مخلوقان أعطيا حرية الاختيار :

الله عز وجل بيده الخلق والأمر، فلذلك من أين يأتي الفساد؟ هناك سمكة في البحر اسمها السمكة الطيبية، كأن ثمة اتفاقاً بين كل أسماك البحر أن هذه السمكة لا تلتهم، ولا تؤكل، مهمتها معالجة الإنتانات على وجه الأسماك، والأسماك تقف في صف طويل تنتظر دورها في المعالجة، في البحر يوجد طب، وهذه السمكة العرف المكتوب عندها أن سمكة كبيرة لا تلتهمها أبداً؟ غداؤها هذه الإنتانات التي في حراشف الأسماك، فكل سمكة كبيرة حتى ضمن فمها تفتح لها فمها وتدخل إلى فمها وتنظف هذه الإنتانات، وتريحها من هذه الأمراض:

### ( مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ )

[سورة الملك: 3]

أين الفساد؟ في مخلوق أودع الله فيه الشهوات، ومنحه حرية الاختيار، وأعطاه منهجاً، فانطلق بدافع من شهواته من دون منهج يسير عليه، فكان الفساد في الأرض، فلذلك الله عز وجل يقول:

### ( ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ )

[سورة الروم: 41]

الفساد محصور فقط في الإنس والجن، لأنهما مخلوقان أعطيا حرية الاختيار، وأودعت فيهما الشهوات، وأعطيا منهجان يسيران عليه، فانطلقا بدافع من الشهوات من دون منهج يسيرا عليه، فكان الفساد في الأرض. الآية الكريمة:

( **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** )

[سورة الروم: 41]

### علاج الفساد :

كان من الممكن ألا يذيقنا الله بعض الذي نعمل، كان من الممكن أن يكون في الأرض إباحية بلا مرض الإيدز، لكن مرض الإيدز قدره الله عز وجل عقاباً للانحراف، العلة لعلهم يرجعون إليه:

( **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** )

[سورة الروم: 41]

( **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ** )  
أي إن أردتم ألا يكون هناك فساد فاتقوا الله، أنت آلة معقدة جداً، ولك صانع حكيم، ولهذا الصانع تعليمات، راقب نفسك بشكل عفوي، إن اشتريت آلة غالية الثمن، عظيمة النفع، معقدة التركيب، لا تستعملها قبل أن تقرأ تعليمات الصانع، الأشخاص المحترمون إذا اقتنوا آلة غالية جداً، ولها فائدة كبيرة جداً لا يستخدمون هذه الآلة إلا بعد قراءة تعليمات الصانع، لأن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها.

### العلاقة العلمية والعلاقة الوضعية :

الله عز وجل يقول:

( **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ** )

لعلك إن انطلقت من محبتك لذاتك، وما منا واحد على وجه الأرض إلا ويحب نفسه، يحب ذاته، أعلن هذا أم لن يعلنه، كل واحد منا يحب وجوده، ويحب سلامة وجوده، ويحب استمرار وجوده، ويحب كمال وجوده، فأنت حينما تنطلق من حبك لوجودك، ومن حبك لسلامة وجودك، ومن حبك لكمال وجودك، ومن حبك لاستمرار وجودك، ينبغي أن تتقي الله، لأنه مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح، ينبغي أن تؤمن أن العلاقة بين المعصية وبين نتائجها علمية، علاقة سبب بنتيجة، وكنت أضرب هذا المثل دائماً، أنت إذا تلقيت أمراً وأنت في مدرسة، مثلاً أن تخرج من هذا الباب دون هذا الباب، وخالفت الأمر تعاقب، لكن ليس هناك علاقة

علمية بين العقاب وبين المخالفة، العلاقة وضعية، المنظم واضع نظام المدرسة ارتأى أن يكون هذا الباب للدخول، وذاك الباب للخروج، فإذا خالفت هذا الأمر تستحق العقوبة، ولكن ليس ثمة علاقة علمية بين العقوبة وبين السبب، العلاقة وضعية، نحن وضعناها.

الآن إنسان خرج من بلده معه مبلغ من المال حصَّله بجهد شرعي، في قوانين تعاقبه، طيب ما في علاقة علمية بين إنسان يحمل ألف بالعملات الصعبة وخرج بها وبين العقاب، العلاقة وضعية، القوانين تمنع ذلك، أما إذا وضع إنسان يده على مدفأة وهي مشتعلة تحترق يده، هناك علاقة علمية بين وضع اليد والاحتراق، يجب أن نفهم جميعاً أن العلاقة بين الأمر الإلهي ونتائجه وبين النهي الإلهي ونتائجه علاقة علمية، علاقة سبب بنتيجة.

لو فرضنا أن وزير الكهرباء كتب أو أعطى تعليمات أن يكتب على عمود يحمل تيار عالي التوتر: ممنوع الاقتراب تحت طائلة الهلاك، لو جاء إنسان وأراد أن يقترب، لكن خاف من الشرطي، رأى أن ثمة شرطة، ليس هنا موضوع شرطة، التيار نفسه يعاقبك، هنا لا تحتاج إلى شرطة، فالإنسان الأحمق يقول: لا أحد يراني، هذه العلاقة بين احتراق الإنسان واقتربه من التيار عالي التوتر علاقة علمية، فلو كنت في منتصف الليل وحدك واقتربت تحترق. فحينما تفهم أنت منهج الله هكذا؛ أن هناك علاقة علمية بين المعصية ونتائجها، وبين الطاعة ونتائجها، تقبل على طاعة الله عز وجل.

### الدين ضماناً لسلامتنا وما المشاكل إلا بسبب خروجنا عن منهج الله سبحانه :

حينما تمشي في مكان مفتوح ووجدت لوحة مكتوب عليها: لا تتجاوز "حقل ألغام"، أولاً: هل تشعر بحقد على من وضع هذه اللوحة؟ لا، بالعكس، نشعر بامتنان له، هل تعد هذه اللوحة تقييداً لحريتك؟ لا، هي ضمان لسلامتك. هذا هو الدين، الدين ضماناً لسلامتنا، لما أمر الله عز وجل بالحجاب، أمر بعدم الاختلاط، أمر بالزواج، أمر بالصدق، أمر بالأمانة، أمر بالعفة، بتلاقي مجتمع سليم متوازن مرتاح فيه تعاون، أما حينما تخرق حدود الله عز وجل، وحينما تنتهك حرمة الله عز وجل ندفع الثمن، ينتهي هذا الكلام بهذه القاعدة، وأنا والله صغتها صياغة أعني ما أقول، ما من مشكلة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بسبب خروج عن منهج الله، لو أردت أن تستقصي المآسي والمشكلات التي يعاني منها البشر، فما من مشكلة إلا بسبب معصية، وما من معصية إلا بسبب جهل.

أخ كريم أهداني كتاباً، ألف هذا الكتاب رجل كان مديراً للسجون، فذكر في الكتاب ثلاثاً وستين حالة من المساجين عنده، كل سجين وقصته وذنبه، لكن أجمل ما في هذا الكتاب أنه بعد أن يذكر قصة السجين والحكم الذي صدر بحقه، يذكر المخالفة الشرعية التي سببت له هذه الجريمة وهذه العقوبة، فما



من مشكلة يعاني منها البشر إلا بسبب مخالفة شرعية. عند ضباط الأمن الجنائي قاعدة عند كل جريمة، يقولون: فتنش عن المرأة، قد يكون وراء هذه الجريمة امرأة مثلاً، أو تنافس على امرأة، أو مشكلة، أنا أقول: فتنش عن المعصية، هذا الأصح، ما من مشكلة تقع إلا وراءها معصية حتى العالم الإسلامي، على الإنسان ألا يكون كالنعامة يغمس رأسه في الرمل.

( أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أِنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ )

[ سورة آل عمران: 165 ]

لا تعتب على أحد، لا تكن مشجباً تعلق عليه أخطاؤك، تقول: يا أخي ماسونية، عالمية، استعمار، أخطاؤنا من عندنا، ما من مشكلة يعاني منها المسلمون في شتى أقطارهم إلا والسبب معصيتهم لله عز وجل، حتى في أمور الرزق.

**الرزق بيد الله عز وجل وما علينا إلا أن نستقيم على أمره :**

قال تعالى:

( وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا \* لِنَقْتَنَّهُمْ فِيهِ )

[ سورة الجن: 16-17 ]

( وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ )

[ سورة الأعراف: 96 ]

( وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ )

[ سورة المائدة: 66 ]

الله عز وجل في هذا العام أعطانا رسالة، أرانا شيئاً من فضله، الأنهار التي جفت من ثلاثين عاماً تفجرت الآن، نهر بردى من عشرين عاماً ما وصل إلى قرية العتيبة، الآن وصل، وأصبحت بحيرة ضخمة، الله عز وجل أعطانا رسالة أن الأمر بيده، الرزق بيد الله عز وجل، فما علينا إلا أن نستقيم على أمره، الفساد من عند أنفسنا، البطل لا يقفز على المشكلات بل يواجهها، فنحن تعودنا أن نحيل كل مشكلاتنا إلى غيرنا، وارتحنا من المسؤولية، مشكلاتنا من عند أنفسنا.

**إن أحسننا فلأنفسنا وإن أسأنا فعليها :**

يقول الله عز وجل:

( وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا )

هذه الآية معناها: إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله غني عنكم، ولكن الله جل شأنه لا يرضى لعباده الكفر.

( وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ )

[ سورة الزمر: 7 ]

((يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِسْكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَثْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِسْكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِسْكُمْ وَجِنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ))

[ أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه ]

لا تظنوا أيها العباد أن إيمانكم ينفع الله عز وجل، إن آمنتم جميعاً أو كفرتم جميعاً عند الله سواء، لكنكم إذا آمنتم فلاأنفسكم، وإن عصيتم فعليها، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أسأتتم فلها، فالإحسان لك، والإساءة عليك.

كل الراحة والطمأنينة نجدها في طاعة الله عز وجل :

الآية دقيقة جداً:

( وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ )

هذان الزوجان اللذان افترقا الله عز وجل قادر أن يهب كلا منهما شريكاً أفضل من الذي تركه، مع وجود الله عز وجل وقدرته المطلقة، وحكمته المطلقة، ورحمته المطلقة، وغناه المطلق، ما من مشكلة في الأرض وفيها مشكلات لا تعد ولا تحصى إلا بسبب ضعف الإيمان وبسبب المعصية، أما لو آمنت بالله الإيمان الحق، واستقمت على أمره فالله عز وجل يعطيك ما تسأل، ولك عنده المكانة العلية. مرةً  
ثالثة:

( وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ )

تطمين:

( وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً )

دقق في هذا المعنى، أنت عبد الله عز وجل، أعطاك منهجاً، وقال لك: أطعني.

أطع أمرانا نرفع لأجلك حجبنا فإننا منحنا بالرضا من أحبنا  
ولذ بحمانا واحتمي بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا  
وعن ذكرنا لا يشغلك شاغل وأخلص لنا تلقى المسرة والهنا  
وسلم إلينا الأمر في كل ما يكن فما القرب والإبعاد إلا بأمرنا

\* \* \*

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا، الخير كله، والسعادة كلها، والراحة النفسية كلها، والطمأنينة كلها في  
طاعة الله عز وجل، والآية الكريمة:

( وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً )

[سورة الأحزاب: 71]

أقم أمر الله فيما تملك يكفك ما لا تملك :

أنت حينما تشدد عليك الأمور عليك بطاعة الله عز وجل، الله ما كلفك فوق ما تطيق، أدق فكرة تكلمت  
بها اليوم في الخطبة أن من تلبس إبليس أن الذي بمقدورك أن تفعله ضمن طاقتك، ولا تساءل، ولا  
تحاسب، و ليس هناك حرج، ولا ضيق، ولا مشكلة يزهدك فيه، والذي لا تستطيعه يقمك فيه، كرجل  
دخل بيته، ألا يستطيع أن يصلي؟ طبعاً، ألا يستطيع أن يضبط لسانه؟ أن يأمر أهله بالصلاة؟ أن يصلي  
قبل أن ينام؟ أن يقرأ القرآن؟ أن يسبح الواحد الديان؟ وأنه إذا أكل يسمي الله عز وجل، ويوجه لأولاده  
نصائح ثمينة، يحضهم على معرفة الله عز وجل، إذا دخل إلى محله التجاري أليس بإمكانه أن يكون  
صادقاً نصحاً للذي يبيعه، متقناً لعمله؟ كله بإمكانك، هل هناك إنسان يسألك في الأرض لماذا أنت  
صادق؟ أنت متهم أنك صادق، لا، هذا مستحيل، لا أحد يحاسبك على أن تكون صادقاً، أو أن تكون  
عفيفاً، وأن تكون أميناً، أو أن تكون متقناً لعملك، أو أن تكون أباً كاملاً أو زوجاً رحيماً بزوجتك، مليون  
عمل بإمكانك أن تفعله ضمن طاقتك، ضمن إمكانياتك دون أن تسأل، دون أن تحاسب، هذا الشيء  
السهل الذي بقدرتك أن تفعله يزهدك الشيطان به، والتي لا تستطيعه دولٌ يحمسك فيه، هذا من تلبس  
إبليس، أقم أمر الله فيما تملك يكفك ما لا تملك، فأنا أملك أن أطيع الله، الله قال لي:

( بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ )

[سورة الزمر: 66]

( وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا )

أطعه وتوكل عليه،

( وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا )

### ( وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ )

[ سورة الطلاق: 3 ]

يكفيه، هذه حالة مريحة جداً، ونحن في أمس الحاجة إليها الآن، قلق شديد، خوف، العدوان قريب من كل مسلم، ما من حدث يقع في أطراف الدنيا لا علاقة لك به، الأحداث لها تداعيات كما يقولون، فكل شيء يقع في طرف الدنيا يتأثر من في الطرف الآخر، ملخص هذا الكلام الطويل: أطع ربك، وتوكل عليه، وفوض أمرك إليه:

### ( بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ )

[ سورة الزمر: 66 ]

( قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْنِكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ )

[ سورة الأعراف: 144 ]

شأنك كعبد أن تطيعه، وشأنه كرب أن يرحمك، وأن يحفظك، وأن يوفقك، فأنت أذ الذي عليك، واطلب من الله الذي لك.

### إن أطعنا الله تعالى أتتنا الدنيا وهي راعمة :

ثم يقول الله عز وجل:

( إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا )

[ سورة النساء: 133 ]

( وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ )

[ سورة محمد: 38 ]

الله عز وجل منحنا نعمة الوجود، ومنحنا نعمة الإمداد، ومنحنا نعمة الهدى والرشاد، فإن استنكفنا أن نعبده وإن تولينا عن طاعته يستبدل قوماً غيرنا، ثم يقول الله تعالى:

( مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا )

من أراد الدنيا، من أراد التفوق في الدنيا، من أراد أن يكون ذا شأن في الدنيا، من أراد أن يكون مثاقفاً في الدنيا، من أراد أن يبقى ذكره في الدنيا، هذا الإنسان ليس طموحاً، لأن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة، أنت إذا أطعت الله أتتك الدنيا وهي راعمة، من أثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، ومن أثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، أنت إذا أردت الله أتتك الدنيا وهي راعمة.

من يختر الله تعالى يكن في الدنيا وجيهاً وفي الآخرة وجيهاً :

قال تعالى:

( مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ )

اطلب ثواب الدنيا والآخرة، الآن في علماء كبار اخترعوا أشياء نافعة ارتقى ذكرهم، وأشاد الناس بهم، ونصبوا لهم تماثيل، وأقاموا لهم حفلات تكريم بعد موتهم، لو أنهم بهذا الاختراع ابتغوا وجه الله عز وجل، وأرادوا خدمة البشرية، والتخفيف عن عباد الله لكسبوا الدنيا والآخرة، كل إنسان له مراد، هذا أراد السمعة فله السمعة، هذا أراد الشهرة فله الشهرة، هذا أراد المال الوفير من هذا الاختراع له ذلك، هذا أراد أن يبقى ذكره مستمراً له ذلك، لكنه لو أراد الله عز وجل له الدنيا والآخرة، كلام دقيق، لو اخترت الله لكننت في الدنيا وجيهاً، وفي الآخرة وجيهاً، وكان وجيهاً في الدنيا والآخرة، أنت حينما تريد لقاء الله عز وجل يرفع الله لك ذكرك في الدنيا، الآن في الحرم النبوي لو دخل أكبر ملك يرى نفسه صغيراً أمام هذا المقام العظيم.

( وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ )

[سورة الشرح: 4]

مرة إنسان أجنبي ما صدق، لم يجد حركة في أحد الأيام في الشام، قال له: عندنا عطلة رسمية، قال له: ما المناسبة؟ قال له: والله عندنا عيد المولد، هناك تعطيل، قال له: من هو صاحب هذه المناسبة؟ قال له: رجل كان نبي هذه الأمة، قال له: من كم سنة مات؟ قال له: من ألف وأربعمئة سنة، صعق!! من ألف وأربعمئة عام يموت هذا الإنسان، ونحتفل كل عام بميلاده؟

( وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ )

[سورة الشرح: 4]

فإذا أردت الله لك الدنيا والآخرة، والله تأتيك الدنيا وهي راغمة، والله هي أحقر من أن تكون عقاباً لإنسان، أو مكافأة لإنسان، لكنها تأتيك عرضاً.

حينما يريد الإنسان الآخرة يكسب الدنيا والآخرة :

قال تعالى:

( مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا )

إنسان يريد الدنيا فقط، تأتيه أموال طائلة، بيل غيت يملك تسعين ملياراً، وهو شاب، عمره أربعون سنة، ثروته تسعون ملياراً، إذا مات ليس بشيء، أي إنسان لو أراد الدنيا فقط ومات انتهى كل شيء،

فإنسان عظمته بقطر شريانه التاجي، ميل وربيع، كل مكانته وهيمنته وقوته وأمواله وأموال منقولة وغير منقولة على ميل وربيع بالشريان التاجي، عندما يغلق يأتي النعي، انتهت الأمور، كل عظمته وثروته وأمواله المنقولة وغير المنقولة وهيمنته وشخصيته وملكه على سيولة دمه، إذا تجمد الدم في العروق انتهت الحياة، أو على نمو خلاياه، إذا نمت نمواً عشوائياً، صار معه ورم خبيث انتهى، فحينما يريد الإنسان الآخرة كسب الدنيا والآخرة.

يقول أحد العلماء: ما يفعل أعدائي بي، بستاني في صدري، إن أبعدونني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي؟ لذلك إذا أطعت الله عز وجل كسبت الدنيا والآخرة، وهذا بعض معاني قوله تعالى:

( وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ )

[ سورة الرحمن: 46 ]

الشهرة في الدنيا لا قيمة لها :

أنا أختم هذا الدرس بهذه الآية:

( أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا )

[ سورة الجاثية: 21 ]

في الآخرة مفروغ منهما، بالدنيا قال:

( سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ )

[ سورة الجاثية: 21 ]

فهل بيت المؤمن كبيت الكافر؟ زواج المؤمن كزواج الكافر؟ أولاد المؤمن كأولاد الكافر؟ عمل المؤمن كعمل الكافر؟ سمعة المؤمن كسمعة الكافر؟ سعادته كشقائه؟

( أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ )

[ سورة السجدة: 18 ]

( أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ \* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ )

[ سورة القلم: 35-36 ]

من كان يريد ثواب الدنيا، الذي يريد مال الدنيا، منصب رفيع، بيت فخم، مكانة عليية، إذا أراد الشهرة، أشهر مخلوق في الأرض إبليس، لا أحد أشهر منه في الأرض، بكل اللغات له مكانة، فالشهرة لا قيمة لها:

( مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا )

## العبرة في النهاية أن تكسب الآخرة :

أنت اختر أن تكون مع الله، النبي عليه الصلاة والسلام حينما اختار أن يلقي ربه بكى سيدنا الصديق، سيدنا بلال حينما جاءه ملك الموت قالت له ابنته: وا كربناه يا أبت، قال: لا كرب على أبيك بعد اليوم، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه، فالبطولة أن تختار الآخرة والله الذي لا إله إلا هو تأتيك الدنيا وهي راحة، والتوفيق الذي يناله المؤمن يفوق حد الخيال.

( فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى \* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى \* فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى )

[ سورة الليل: 5-7 ]

الأمر ميسرة:

( مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا )

والله بلغني أن إنساناً من الذين ذهبوا في أحداث العراق ليدافعوا عن الإسلام قتل، أقسم بالله، وهو شاب، أربعة أيام والحر شديد وكأنه نائم، فقال صاحبه: أنا حفرت له حفرةً ودفنته وقبّلته قبل أن أدفنه، هذا الشاب كسب الآخرة كلها، كسب الجنة، أربعة أيام، الجثة بالحر تنفسح بعد ساعات، أربعة أيام وهو نائم، قال: والله كأنه نائم، حفر له حفرة في صحن مسجد ودفنه بها، وقبّله قبل أن يدفنه، عطاء الله لا يقدر بثمن.

الآن واحد مثلاً ملك دولة فيها ستة آلاف بئر، أكبر مخزون نפט بالعالم، ملكها بكاملها، فرضاً، وواحد ملك الجنة، أيها أكثر ربحاً؟ اسمع الآية:

( فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ )

[ سورة آل عمران: 185 ]

يجب أن تكون مقاييسنا مقاييس قرآنية،

( فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ )

ليس معنى ذلك إذا دخل العدوان نقول: إنها مشيئة الله، لا، يجب أن يقاوم طبعاً، لكن أقول لك: في النهاية سوف نموت جميعاً، من هو المنتصر في الحقيقة؟ الذي كسب الآخرة.

هذا الغلام الذي قال للملك: لن تقتلني إلا إذا أخذت سهماً من جعبتي، وجمعت الناس في مكان عام، وقلت قبل أن تطلق السهم: بسم رب الغلام، فمات الغلام، ما الذي حصل؟ الناس آمنوا برب الغلام، ولم يؤمنوا بالملك، هو ضحى بحياته، لكنه كسب الآخرة، الآن عندنا نصر مبدئي يملكه كل واحد منا، ولو أننا على صعيد الواقع ما انتصرنا، إذا مات الرجل مؤمناً مستقيماً موحداً له عمل صالح، هذا منتصر، ولو مات بقذيفة، العبرة أن تكسب الآخرة، هذا النصر متاح لكل واحد منا، أن يموت مؤمناً.

( مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا )

والحمد لله رب العالمين